في الأدب الأبويّ العربي :الرسالة الأبوية أنموذجا

عرض موضوعي فني مكثّف

☜إعـــداد

أ/ أحمد حسن يحيى المزاح
محاضر بجامعة الملك خالد كلية العلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية أبها المملكة العربية السعودية

على صفحة الأدب العربي الواسعة ــ شعره ونثره ــ خطّ بارز الملامح، عميق البدايات ؛ يمتدّ معها إلى أقصى ما تصل إليه في صدر العصر الجاهلي، ويهبط معها ــ كذلك ــ باتجاه الحاضر إلى يوم الناس هذا .

ذلك الخط الأصيل ــ الذي ما زال يزداد مع الأيام اتساعا وعمقا ونضاجا ــ هوما يمكن أن يُطلق عليه مصطلح " الأدب الأبوي " ؛ أيْ الأدب المنسوب إلى الأبوين أوإلى أحدهما ، الصادر عنهما أوعن أحدهما باتجاه أولادهم ؛ مع ما تختزنه لفظة "أبويّ " من كمنون وجداني نبيل أصيل فياض؛ هو في حقيقته ــ المُولِّد الرئيس لحركة الإبداع على هذا الخطّ .

وعند الدنومن هذا الخطّ وتركيز الرؤية عليه ــ في قدر من التأني والتدقيق ــ فإنه لا يلبث أن يتشكل في عين القارئ في خطوط موضوعية متوازية أصغر ؛ تمتدّ بامتداد ذلك الخطّ الكبير ، وتتلاحم لتكوينه ، راسمة بذلك الخطوط الموضوعية والشكلية العامة التي يتدفق فيها هذا الأدب ؛ بما بمكن تمثيله في الخطوط الجزئية التالية :

الخط الأول : أدب الأبوة المجازية

وهوذلك الأدب الأبويّ الذي يوجه فيه الملقي خطابه الإبداعي ــ شعرا أونثرا ــ في صورة شفوية أوكتابية من موقع الأبوة المجازية أوما يوازيها مكانة ــ كأن يصدر فيه من موقع المعلّم أوالداعية أوما في حكم ذلك ــ إلى الجيل الناشئ كله ، في خطاب إبداعيّ عالي الطراز ، لا يخاطب فيه الملقي المبدع ولده الحقيقي ؛ غير أنه يتقمص مكان الأب ودوره ومشاعره ومسئولياته تجاه أبنائه ، متخذا مفردات من قبيل : " يا بنتي " ، " يا ابني"[1] ،

---

[1] ــ انظر : علي الطنطاوي . " يا بنتي ويا ابني " .

" يا بني "[1] ، " ابنتي "[2] ، " أيها الولد "[3] ، " يا فتاة "[4] ، " أيها الشباب "[5] ؛ أسلوبا يسبغ على تواصله مع متلقيه السلطة العاطفية على أقل تقدير .

ومما يمكن ضبطه على هذا الخطي بعض نماذج الوصية الأبوية والموعظة الأبوية والرسالة الأبوية والحوار الأبوي والمقال الأبوي .

الخط الثاني : أدب الأبوة الحقيقية

وهوذلك الأدب الذي يوجه فيه الملقي " الأب " خطابه الإبداعيّ ـ كذلك ـ من موقع الأبوة الحقيقية إلى ولده ـ ذكرا أوأنثى ، جمعا أومثنى أومفردا ـ سواء استهدف بخطابه ذلك ولده الحقيقي دون سواه ، وقصره عليه دون غيره ـ كما هو في الرسالة الشخصية ـ أوقصد به ولده ، ومروره من خلاله ـ صراحة أوضمنا ـ إلى الجيل الموازي وإلى الأجيال التالية ، كما هوفي الرسائل الأدبية التي يصرح فيها أصحابها بهذا التمرير[6].

ويمكن ضبط الإبداع الأدبي الأبوي على هذا الخط ـ شعره ونثره ـ في أنماط موضوعية وفنية متمايزة منها :

---

[1] ـ انظر : محمد بن عبد الله الدويش . " يا بني . لقد أصبحت رجلا " .

[2] ـ انظر : د . نجاة حفظ . رسالة إلى ابنتي ، زينب الغزالي الجبيلي . إلى ابنتي .

[3] ـ انظر : أبوحامد الغزالي . أيها الولد .

[4] ـ انظر : أبوبكر الجزائري . إلى فتاة السعودية و(المسئولون) عنها .

[5] ـ انظر : حسن البنا . مجموعة رسائل . ص ١٧١ .

[6] ـ كما سيتجلى بعد قليل .

أ ـ الوصية الأبوية

ويُقصَد بهـا الـنص الـشفوي أوالكتـابي الموظـف لاسـتيعاب تكليـف الأب " الموصِي " للابن " الموصَى " بـأمر مـا علـى سـبيل الإلـزام ؛ إذ الأب يوصـي ولده ـ ذكرا أوأنثى ـ عند دنوالتفارق لسفر أوموت أوزواج أونحوه .

وهذا النوع من الأدب ممتد مع خط الأدب الأبـوي منـذ العـصر الجـاهلي إلـى يوم الناس هذا . وموضوعاته تتسع لكل شـيء . وممـا يمثـل هـذا الـنمط مـن الأدب الأبوي كتاب : إنباء الأبنـاء بأطيـب الأنبـاء للألوسـي . وهـذا النـوع ـ غالبا ـ نص شفهي في أصله ؛ لكنه يُحرر خطيا للتوثيق .

ب ـ الموعظة الأبوية

وهي النص الشفهيّ أوالكتابي الـذي يتجـه بـه الأب إلـى ولـده علـى سـبيل النصح والإرشاد ؛ لا على سبيل الإلـزام أوالفـرض ، وهوـ كـسابقه ـ ممتـد الجذور إلى العصر الجاهلي ، وهوـ أيـضا ـ نـص شـفهي ـ فـي الأصـل ؛ غير أنه يُحرر كتابيا رغبة فـي التوثيـق أوالتـأليف ، ونحوذلـك . وتغلـب علـى هذا النمط من الأدب الأبوي النزعة الإصلاحية الدينية أوالأخلاقية.

ج ـ الحوار الأبوي

وهوالنص الشفهي أوالمكتوب القـائم علـى أسـاس التحـاور المباشـر أوغيـر المباشر بين الأب وولده .

د ـ المقال الأبوي

وهوالنص المقالي الموضوعي المكتوب الـذي يوجهـه الأب إلـى ولـده عبـر منبر إعلامي ما ؛ كمجلة أوجريدة أونحوهما . لكـن المؤلـف يوجهـه إلـى ولـده خاصة لعلاقته القوية به ، ولغرض تربوي في الغالب .

هـ ـ الرسالة الأبوية[1]

وهي النص الشفهي أوالمكتوب الذي يتجه فيه الأب بالخطاب ـ مباشرة ـ إلى ولده.

إن مضامين هذا النمط من الأدب الأبوي شفهية في الأساس ، وكان يمكن إيصالها بالتحادث المباشر ، غير أنّ بُعدَ المسافة بين طرفي الاتصال الأب وولده " ورغبة الأب الملحة في التواصل مع ولده دفعت الأب إلى تحرير هذه المضامين كتابيا ، ومن ثم الدفع بها إلى ولده الغائب ـ في الغالب ـ مكانيا.

ولكي يكون النص الإبداعي رسالة بالمعنى الحرفي المعجمي للفظة " رسالة" لا بدّ أن تتوفر فيه العناصر التالية :

١ ـ عناصر تكوينية أساسية ، وهي :

أ ـ المرسل

ب ـ المرسل إليه

ج ـ الرسالة

٢ ـ عناصر تكوينية شكلية ، وهي :

أ ـ التصدير ، ويكون بما يأتي أوببعضه أوبما يقوم مقامه :

١ ـ صيغة " البسملة ـ غالبا ـ والتحية ، وربما الحمدلة " .

٢ ـ صيغة " من فلان إلى فلان " ، أوما في حكمها ، أويدل عليها .

٣ ـ صيغة " أما بعد " ، أو" وبعد " ، أوبما يدل عليها .

ب ـ الموضوع الرئيس

ج ـ الختام ، من خلال ما يأتي أوبعضه ، أوما يقوم مقامه .

١ ـ إعادة تحية التصدير

---

[1] ـ وهي مركز اهتمام هذا البحث .

٢ ــ الدعاء للمرسَل إليه

٣ ــ عبارة وداع ما

تلك هي العناصر التكوينية والشكلية الثابتة في شخصية الرسالة بمفهومها المعجمي الحرفي ، وبتصميمها التقليدي الدارج في الأدب العربي منذ أقدم نماذجها . وهي العناصر التي يستطيع القارئ أن يحدد من خلالها ما إذا كان النص المقروء رسالة أوأنه شيء آخر . ولا يُتَصوَّر سقوط عنصر من عناصر التكوين الرئيسة الثلاثة ، أما عناصر التكوين الشكلية فمن الملاحظ أنها كانت مرعية في الأدب العربي القديم ، ولأنه ليس حتميا وجودها بالذات فقد أسقطها بعض الأدباء ــ ولا سيما المحدثين منهم ــ من رسائلهم ، كما يتجلى بوضح في رسائل التويجري إلى ولده.

٣ ــ عناصر ثانوية أخرى ، وتتمثل في :

أ ــ البعد المكاني بين طرفي الخطاب .

ب ــ حصول التواصل .

ج ــ وجود الواسطة الناقلة للرسالة

لكن هذه العناصر الثانوية تفقد أهمتها ــ كمحدد لجنس النص ــ فقط عند القارئ الأجنبي ، فلا يهم القارئ في القرن العشرين كثيرا أن يكون بُعد مكاني بين معاوية ــ رضي الله عنه ــ وابنه يزيد أم لا ، وما إذا كان قد الاتصال فعلا أم لا ، وما إذا كانت قد توفرت الواسطة الناقلة أم لا . ما يهمه هوعناصر التكوين والشكل الثابتة .

إذا قد اتضح مفهوم الرسالة فإن تمرير نصوص الأدب الأبوي الذي تتوافر هذه العناصر على محك الدرس التصنيفي يجلوأن ما يتوافر من نماذجه ينماز

حسب الوظيفة الرئيسة التي أنشئ من أجلها إلى الأضرب التالية :

الأول : رسالة الوصاة الأبوية

وهي النص الشفهي أوالمكتوب الذي تحققت فيه عناصر الرسالة التكوينية والشكلية ـ على أقل تقدير ـ الموجه من الأب إلى ولده ، الموظف ـ بالدرجة الأولى ـ لاستيعاب وصية الأب إلى ولده على سبيل الفرض والإلزام. إنه نص يخاطب به الوالد ولده وتحققت فيه ضوابط الرسالة فدخل بذلك في باب الرسائل الأبوية ، وتحققت فيه ضوابط الوصية ؛ من حيث كونه على سبيل الفرض والإلزام فأبقت عليه في باب الوصايا ، فكان ـ بذلك الإزدواج الموضوعي الفني ـ رسالة وصاة أبوية .

الثاني : الرسالة الأبوية الوعظية

وهي النص الشفهي أوالمكتوب الذي تحققت فيه عناصر الرسالة الثابتة، الموجه من الأب إلى ولده ، الموظف بالدرجة الأولى لاستيعاب نصائح الأب وإرشاداته إلى ولده ، وإعلامه وتذكيره بما يجب وما لا يجب ، وبما يحسن وما لا يحسن ؛ لكن على وجه لا إلزام فيه . إنه نص يخاطب به الأب ولده ، كان في الأساس موعظة أبوية ـ بضابطها المذكور آنفا ـ لكن توافر عناصر الرسالة فيه أدخله في باب الرسائل؛ فكان ـ بذلك ـ رسالة أبوية وعظية .

من هذا الضرب الرسالة التي كتبها معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ إلى ولده يزيد ؛ وقد بلغه مقارفة يزيد للذات ، وانهماكه في الشهوات، والتي يقول فيها: (من معاوية بن أبي سفيان ، أمير المؤمنين إلى يزيد بن معاوية .

أما بعد أدّت ألسنة التصريح إلى أذن العناية بك ما فجع الأمل فيك ، وباعد الرجاء منك . إذ ملأتَ العيون بهجة ، والقلوب هيبة ، وترامت إليك آمال الراغبين وهمم المنافسين ، وشحت بك فتيان قريش وكهول أهلك ، فما يسوغ لهم ذكرك إلا على الجرة المهوعة ، والكظّ الجش . اقتحمتَ البوائق ، وانقدتَ للمعاير ، واعتضتها من سموالفضل ورفيع القدر ، فليتك يزيد إذ كنت لم تكن . سررت يافعا ناشئا ، وأثكلتَ كهلا ضالعا ، فواحزناه عليك يزيد .... انتبه يزيد للفظة ، وشاور الفكرة ، ولا تكن إلى سمعك أسرع من معناها إلى عقلك . واعلم أن الذي وطأك وسوسة الشيطان وزخرفة السلطان مما يحسن عندك قبحه ، واحلولى عندك مره ، أمر شركك فيه السواد ، ونافسكه الأعبُد، لا لأثرة تدعيها أوجبتها لك الإمرة ، وأضعت بها قدرك ، فأمكنت بها من نفسك ؛ فكأنك شانئ نفسك ، فمن لهذا كله ؟

اعلم يا يزيد أنك طريد الموت ، وأسير الحياة . بلغني أنك اتخذت المصانع والمجالس للملاهي والمزامير ، كما قال الله تعالى : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون)[1] ، وأجهرت الفاحشة حتى اتخذت سريرتها عندك جهرا .

اعلم يا يزيد أنّ أول ما سلبكه السكر معرفة مواطن الشكر لله على نعمه المتظاهرة، وآلائه المتواترة ، وهي الجرحة العظمى ، والفجعة الكبرى : ترك الصلوات في أوقاتها المفروضات في أوقاتها ، وهومن أعظم ما يحدث من آفاتها ، ثم استحسان العيوب ، وركوب الذنوب ، وإظهار العورة ، وإباحة السر ، فلا تأمن نفسك على سرك ، ولا تعقد على فعلك ، فما خير لذة تعقب الندم ؟ وتعفي الكرم ؟

---

[1] ـ الشعراء . الآيتان ١٢٨ ، ١٢٩ .

وقد توقف أمير المؤمنين بين شطرين من أمرك لما يتوقعه من غلبة الآفة، واستهلاك الشهوة ، فكن الحاكم على نفسك ، واجعل المحكوم عليه ذهنك ترشد إن شاء الله تعالى ، وليبلغ أمير المؤمنين ما يرد شاردا من نومه ، فقد أصبح نصب الاعتزال من كل مؤانس ، ورديئة الألسن الشامتة ، وفقك الله فأحسن)[1] .

ومما ينساق في هذا الضرب من الرسائل الأبوية :

١ ــ كتاب عمر بن الخطاب إلى ولده عبد الله بن عمر رضي الله عنهما[2] .

٢ ــ كتاب عمر بن عبد العزيز إلى ولده عبد الله[3] .

٣ ــ كتاب يحيى بن خالد البرمكي إلى ولده جعفر[4] .

٤ ــ لفتة الكبد إلى إلى نصيحة الولد لابن الجوزي[5] .

يقول المرسل في تقديمه لهذه الرسالة :

(بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين .... الحمد لله الذي أنشأ الأب الأكبر من تراب .... أما بعد . فإنني لما عرفت شرف النكاح وطلب الأولاد ؛ ختمت ختمة ، وسالت الله ــ تعالى ــ أن يرزقني عشرة أولاد ، فرزقنيهم ، فكانوا خمسة ذكور ، وخمس إناث ، فمات من الإناث اثنتان ، ومن الذكور أربعة ، فلم يبق من الذكور سوى ولدي أبي القاسم ، فسالت الله ــ تعالى ــ أن يجعل فيه الخلف الصالح ، وأن يبلغ به المنى والمناجح ، ثم رأيت منه توانٍ عن

---

[1] ــ القلقشندي . صبح الأعشى . ٦ : ٣٨٧ ، وأحمد زكي صفوت : جمهرة رسائل العرب . ٦ ٦٦

[2] ــ انظر : ابن قتيبة . عيون الأخبار ١ : ٢٨٦ . الحصري القيرواني : زهر الآداب ١ : ٧٢ . جمهرة رسائل العرب ١ : ٢٤٩ .

[3] ــ عن : جمهرة رسائل العرب ٢ : ٣١٣ .

[4] ــ انظر : الطبري . تاريخ . ١٠ : ٨٣ . جمهرة رسائل العرب ٣ : ١٩٠ .

[5] ــ وهي رسالة وعظية طويلة ، طُبعت في كتيب صغير الحجم .

الجدّ في طلب العلم ، فكتبت له هذه الرسالة أحثه بها وأحركه على سلوك طريقي في كسب العلم ، وأدله على الالتجاء إلى الموفق سبحانه وتعالى ....)[1] .

الثالث : الرسالة الأبوية التوجهية

وهي النص الشفهي أوالمكتوب ، الذي تحققت فيه عناصر الرسالة ، الموجه من الأب إلى ولده ، الموظف أساسا لاستيعاب توجيهات الأب لولده باتخاذ موقف أومواقف ما تجاه قضية أوقضايا ما ، على نحورسمي إلزامي جاد ، المفروض ألا يكون للولد خيار في تنفيذه .

ومع أن النص من هذا القبيل يحمل طابع الإلزام إلا أنه لا يدخل في " رسالة الوصايا الأبوية " لأنه لا يرتبط بمناسبة التفارق الطارئ بين الأب وولده ، بالإضافة إلى سيطرة النبرة السلطوية الرسمية الآمرة على صوته .

ينساق في هذا الضرب رسالة طاهر بن الحسين إلى ولده عبد الله لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما سنة ٢٠٦ هـ ومنها قوله :

(بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ؛ فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيته ومراقبته ومزايلة سخطه ، وحفظ رعيتك .... فإن الله أحسن إليك، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده . وألزمك العدل عليهم . والقيام بحقه وحدوده فيهم ، والذب عنهم ، والدفع عن حريمهم وبيضتهم ، الحقن لدمائهم ، والأمن لسبيلهم ، وإدخال الراحة عليهم في معاشهم ....

وليكن أول ما تلزم به نفسك ، وتنسب إليه فعالك المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قِبَلك في مواقيتها على سننها في إسباغ الوضوء لها ، وافتتاح ذكر الله فيها ،

---

[1] ــ الإمام أبوالفرج بن الجوزي . لفتة الكبد إلى نصيحة الولد ٤٨ ــ ٥١ .

وترَتّل في قراءتك ، وتمكّن في ركوعك ، وسجودك وتشهدك ، ولتصدق فيها لربك نيتك ، واحضض عليها جماعة من عندك وتحت يدك .....)[1] .

وهكذا يمضي المرسل ــ على مدى أحدى عشرة صفحة من القطع الكبير ــ يأمر ولده وينهاه ، ويوجهه إلى ما يجب وما لا يجب ، وما يأتي وما يدع ، متطرقا في ذلك إلى الكثير من دقيق الأمور وجليلها ، سواء ما تعلق منها بحياته الخاصة ، أوبسيرته في الناس وتعامله معهم وسياسته فيهم .

ومما ينساق في هذا الضرب الرسالة التي كتبها عبد الحميد الكاتب على لسان الخليفة الأموي مروان بن محمد إلى ولده وولي عهده عبد الله بن مروان سنة ١٢٩هـ ، حين وجهه لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي[2] ، وهي رسالة مطولة تمتدّ على مساحة خمسين صفحة من القطع الكبير ، يوجهه فيها إلى التزام مجموعة من السلوكيات الدينية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والعسكرية ، لكن هذه الرسالة ــ وإن كانت قد كُتِبت على لسان الخليفة من قِبَل كاتب متمكن ، هوإلى ذلك أعرف الناس بالخليفة وبمنهجه العام ، لما هومعلوم بينهما من أواصر العلاقات الحميمة العميقة ، ولا بد أنه قد أطلع عليها قبل إعلانها أوإرسالها إلى ولده ووافق عليها لما يكفي للقول : إنها تعكس إلى حد كبير شخصية هذا الخليفة الدينية والأخلاقية والاجتماعية والعسكرية والسياسية ــ لا تعكس شخصية مروان : " الوالد " ورؤاه وتصوراته وتجاربه ومواقفه من الأشياء ؛ بقدر ما تعكس شخصية عبد الحميد ذاته ، ورؤاه وتصوراته ومواقفه ، وعلاقته بولي العهد ، ورؤيته الخاصة فيما ينبغي أن يسوس به رعيته ونفسه في مختلف السياقات

---

[1] ــ صبح الأعشى ١٠ : ١٩٥ .جمهرة رسائل العرب ٢ : ٤٠٦ .

[2] ــ انظر المصدر نفسه ١٠ : ١٩٥ . جمهرة رسائل العرب ٢ : ٤٠٦ .

المشار إليها آنفا. ولما كانت هذه هي عادة عبد الحميد في رسائله ، ولما كانت الرسالة صادرة إلى خليفة الغد ـ الأمر الذي يصعب معه توجيه الرسالة من عبد الحميد إليه على نحومباشر ـ فقد وجد عبد الحميد في رغبة صديقه الخليفة القائم في توجيه ولده وولي عهده إلى محاربة الضحاك الفرصة مواتية ، فاتخذ من ذلك وسيلة إلى توجيه خليفة الغد ، وتربيته في خطاب قوي ، يضمن له تحقيق هدفه بأسلوب سلطوي ـ على ما يُلحظ فيه من لين وتودد واعتذار ـ قائم على الأمر والنهي والتوجيه ، في الوقت الذي فيه على باب العلاقة بينه هووبين ولي العهد مفتوحا ، ويحافظ فيه على نفسه بمنأى تام عن سخط ولي العهد أوتذمره أوتوليد أية خلفيات نفسية لديه، قد يكون لها انعكاس مستقبلي على علاقته به ، ولذلك ذهب عبد الحميد يتواصل مع ولي العهد ويوجه سلوكه ـ في مختلف السياقات ـ من وراء كرسي الخليفة وبصوته .

إنّ هاتين الرسالتين اللتين أدرجتا هنا نموذجان على هذا الضرب من " الرسائل الأبوية التوجيهية " ، وإن ظهرت عليهما بعض سمات " الرسالة الأبوية الأدبية " ـ التي سيتم عرضها بعد قليل ـ إلا أنهما تبقيان لهما خصوصيتهما التوجيهية من حيث صدروهما من مركز السلطة الموجهة الآمرة إلى مركز الجهة المنفذة المأمورة ، ومن حيث اشتمالهما على مجموعة من التوجيهات الموضوعية البحتة التي لا بدّ من تنفيذها ؛ وإن جاءت في ثوب أدبي قشيب . لكن نماذج هذا الضرب لا تقتصر على هاذين الأنموذجين ؛ إذ يمكن أن يلحق بهما مجموعة أخرى من الرسائل ذات المضامين التوجيهية ، ومن ذلك رسالة يحيى بن خالد البرمكي إلى لده

الفضل التي يوجهه فيها بإنفاذ أمر الخليفة بالتخلي عن الوزارة لأخيه جعفر[1]، ومن ذلك أيضا رسالة يحيى بن خالد البرمكي إلى ولده الفضل التي يوجهه فيها بالإقلاع عن سوء السيرة التي ترامت منه إلى أذن الخليفة[2] .

الرابع : الرسالة الأبوية الشخصية

وهي النص الشفهي أوالمكتوب الذي تحققت فيه ضوابط الرسالة ، الموجه من الأب " المرسل " إلى ولده " المرسل إليه " ، الموظف لاستيعاب مشاعر الأب تجاه ولده ، ومواقفه منه ، وآرائه تجاه قضية محددة ــ في الغالب ــ في الإطار الثنائي الخاص .

ومما يندرج في هذا الضرب كتاب عبد الملك بن مروان إلى بعض ولده ــ وقد خالفه في شيء ــ يعاتبه فيه ، وينكر عليه صنيعه حين يقول :

(أما بعد ؛ فإني أمرتك بأمر فأتيت غيره ، ووصيتك بوصية فأبيت إلا عصيانها ، وخفت أنك بمنزلة الصبي الذي إذا أُمِرَ بشيء أباه ، وإذا نُهي عن شيء أتاه ، فيحتال له فيما ينفعه بأن يُنهي عنه ، وفيما يضره بأن يؤمر به ، ويا سوءتي لمن هذه حاله ! والسلام .)[3] .

ويوافق هذه الرسالة في هذا كتاب ابن عبد كان على لسان أحمد بن طولون إلى ولده العباس حين عصى عليه بالإسكندرية ينذره ويوبخه فيه[4] . ويندرج فيه أيضا رسالتا بديع الزمان الهمذاني على لسان والده إليه[5] ،

---

[1] ــ انظر : زهر الآداب ٢ : ٤١٩ . ابن خلكان . وفيات الأعيان ٤ : ٢٧ . جمهرة رسائل العرب ٣ : ١٥٥ .

[2] ــ انظر : وفيات الأعيان ٤ : ٢٨ . جمهرة رسائل العرب ٣ : ١٥٦ .

[3] ــ نقلا عن : جمهرة رسائل العرب ٢ : ٢١١ .

[4] ــ انظر : صبح الأعشى ٧ : ٥ . جمهرة رسائل العرب ٤ : ٣١٦ .

[5] ــ انظر : رسائل أبي الفضل ، بديع الزمان الهمذاني ١٩٣ ، ١٩٤ ، ورسالة

ومثلها رسالة هشام إلى ولده[1]، وكذلك رسالة الملك محمد بن يوسف الخامس ــ ملك المغرب ــ إلى ولده ولي عهده الحسن ، بمناسبة عيد مولده السابع والعشرين[2] . لكن من أكثر نماذج هذا الضرب تمثيلا له ، وتجسيدا لملامحه ، ودلالة عليه ، وإفصاحا عن شخصيته مما هومنشور مجموعة رسائل الأديب السعودي الراحل حمزة شحاتة إلى ابنته شيرين[3]. ولعل هذا الضرب ــ الأخير ــ من الرسائل الأبوية يعكس تماما الرسالة الأبوية في الأدب العربي في أبسط صورها ، وأكثرها تمثيلا لمعنى لفظة " رسالة "، وأوسعها انتشارا ؛ إذ لا يظن أن هناك من لديه القدرة على التعبير إلا وهوقادر على إنشاء هذا الضرب من الرسائل الأبوية الشخصية ، لا في شكلها الشفهي فحسب؛ بل في شكلها المكتوب أيضا ؛ على اعتبار توافر إمكانية الإملاء لمن ليست لديه إمكانية الكتابة بذاته .

لكن قبل مغادرة هذا الكلام ؛ تحسن الإجابة على التساؤل التالي :

هناك من أضرب الرسالة الأبوية التي تم عرضها أوأحيل إليها رسائل لم تتوافر فيها عناصرها الشكلية تماما ؛ كأن يسقط منها الصدر أوالخاتمة ، أوكلاهما في بعض تلك الرسائل ، ومع ذلك سُلكت هنا في فن الرسائل الأبوية، ثم إن هناك تداخلا ملحوظا بين هذه الأضرب ؛ فما توجيه ذلك ؟

أما عن سقوط بعض عناصر تصميم الرسالة فيوجه بما يلي :

---

[1] ــ انظر : جمهرة رسائل العرب ٢ : ٣٦٨ .

[2] ــ انظر : إيفان جونس . رسائل الآباء للأولاد ص ٤٠ .

[3] ــ انظر : حمزة شحاته . إلى ابنتي شيرين .

أولا : بعد فحص هذه النماذج تبين أنها أقرب إلى الرسالة منها إلى أيّ نمط فني آخر؛ من موعظة أووصية .

ثانيا : لقد بقيت لها شخصيتها التكوينية كاملة .

ثالثا : جاء الرد من المرسل إليهم على بعضها ، أوكانت هي ردودا على رسائل المرسل إليهم .

رابعا : بقيت لها وظيفة الرسالة من توجيه أوعتاب أوإبلاغ .

خامسا : من الواضح أن مثل هذه النماذج التي سقطت منها بعض عناصرها الشكلية تمثل عنصر " العرض " في الرسالة ، وهوالجزء المهم في لدى مؤلف المصدر الذي وردت فيه تلك النماذج ، إذ ربما عمد إلى انتزاعه من مكانه دون العنصرين الآخرين أوأحدهما .

سادسا : نُصَّ ــ في مصادرها ــ على أنها رسائل أوكتب .

سابعا : إذا لم تكن رسالة ؛ فماذا تكون ؟

أما عن تداخل أضرب الرسائل هنا فذلك أمر لا سبيل إلى دفعه ، ولكن تصنيف الرسالة وتوجيهها إلى مكانها إنما كان استجابة للصوت الأعلى فيها، وبالنظر إلى وظيفتها المحورية ، فإذا كانت موظفة للنصح والإرشاد العام ، وعلا فيها صوت هذه الوظيفة على سواه فهي " رسالة وعظية " ، وإذا كانت موظفة للتوجيه الإلزامي والتكليف فهي " رسالة توجيهية " ، وإذا كانت موظفة لمعالجة القضايا الثنائية الخاصة بين المرسل والمرسل إليه ؛ في سياق العلاقة الخاصة بينهما بصورة مباشرة فهي " رسالة شخصية " ، وإذا كانت موظفة للتأليف ولمعالجة قضايا عامة ، بمنأى تام عن الأوامر التوجيهات الموضوعية الإلزامية ، وفي إغفال ملموس للشئون الشخصية

الخاصة بطرفي الاتصال ، وفي نمط إبداعي يتجاوز مضامين المواعظ والوصايا وأساليبها ، وإذا علا فيها صوت الإبداع الأدبي على أصوات الوعظ والوصايا والتوجيهات الرسمية والشئون الخاصة فهي " رسالة أدبية " . ولعل هذا التصنيف صالح للتطبيق على فن الرسائل في الأدب العربي ؛ فلا أعلم بوجود دراسة تنظر إلى أدب الرسائل من هذه الزاوية ، لكن معظم المتاح من التصانيف لهذه الرسائل يقسمها إلى رسائل إخوانية وديوانية وأدبية . وذلك من خلال مزدوجة ؛ تلمح طرفي التخاطب في الرسالة من ناحية ، وتلمح طبيعتها الموضوعية والفنية من ناحية ثانية ، في آن واحد[1]، في إغفال تام للوظيفة الأولى لرسالة ، ومن هنا كان التداخل التصنيفي بين هذه الأضرب ، موضوعا وفنا .

يجب أن يُنظر أولا إلى الوظيفة التي أنشئت الرسالة ـ أساسا ـ للقيام بها، ثم بعد ذلك تصنف إلى محاور أصغر ، فالرسائل التوجيهية ـ مثلا ـ تقسم إلى : توجيهات الآباء . توجيهات المعلمين . توجيهات الخلفاء . توجيهات الوزراء . توجيهات العلماء ... الخ ، وكذلك الأمر في الرسائل الوعظية ، فمنها : وعظ الأولاد . وعظ العامة ، وعظ الخلفاء .... ومن ثم تدرس رسائل كل محور على أساس تصنيفي موضوعي عادل .

الخامس : الرسالة الأبوية الأدبية

وهي النص الشفهي ـ نادرا ـ أوالمكتوب ـ غالبا لطوله ـ الذي تحققت فيه الضوابط التكوينية والشكلية للرسالة ؛ على أقل تقدير ، الموجه من الأب

---

[1] ـ انظر مثلا : أ ـ مجدي وهبة ، كامل المهندس . معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ص ١٧٨ .

ب ـ د . محمد التونجي . المعجم المفصل في الأدب ٢ : ٤٧٨ ـ ٤٧٩ .

إلى ولده ، المنتج إنتاجا إبداعيا مميزا في تقنياته ، شموليا في موضوعاته ، جادا في معالجاته ، عاما في قضاياه ، مرتبطا في غاياته بالمرسَل إليه ، وموجها ــ في الغالب ــ لمصلحته ولمصلحة الجيل الناشئ الموازي والتالي من خلاله .

وعند التدقيق في هذا الضرب من الرسائل الأبوية من حيث طبيعته الفنية وأسلوبه في المعالجة تتجلى للقارئ المدقق الملامح العامة لنمطين متمايزين منه :

النمط الأول : الرسالة الأبوية الموضوعية

وهي رسائل أدبية فيها من المقال روحه ، ومن الرسالة جسدها . إنها في حقيقتها مقالات أدبية مطولة ، تغلب عليها مواصفات المعالجة الموضوعية البحتة بشكل ملموس . إنها تنصرف ــ غالبا ــ إلى طرح ومعالجة قضايا عامة في الدين والتربية والتعليم والمجتمع والسياسة والتاريخ والأخلاق ، معالجة أقرب إلى المنهجية والمباشرة ــ وإن كانت تخف حدة المنهجية والمباشرة هاتين عند كاتب عنها عند كاتب آخر ــ إلى درجة يبدومعها هذا الضرب من الرسائل أقرب إلى المقال الأدبي منه إلى الرسالة ، لولا أنه تقمص شخصية الرسالة بعناصر تصميمها التكوينية والشكلية ؛ بل وحتى الثانوية في كثير من نماذجه .

ومما ينماز إلى هذا النمط من الرسائل الأبوية ما يلي :

١ ــ رسائل أحمد حافظ عوض بك إلى ولده

وهي عبارة عن ثمان عشرة رسالة ، امتدت على مساحة مئة وثلاثين صفحة من القطع المتوسط ، كُتِبتْ على الأرجح في العقد الأول من القرن

العشرين الميلادي ، يتكئ فيها المؤلف إلى جملة : " ولدي العزيز " التي صدّر بها كل واحدة من رسائله هذه دون أن تتكرر في صلب الرسالة مرة أخرى ، مما يدل على انصرافه إلى معالجة الموضوع انصرافا جادا ، لكنه لا ينسى أن يختتمها بالتحية لولده والدعاء له.

قال عنها ولده جمال الدين " المرسَل إليه " في معرض تقديمه لها : (هذه مجموعة رسائل كان يبعث بها إليّ والدي من مصر وأنا طالب في الكلية الأمريكية في بيروت ، ....)[1] ، بينما قال عنها المرسل ـ نفسه ـ في صدر أولاها ، وهويخاطب ولده : (إلى ولدي العزيز . قبل أن تقرأ هذه الرسالة التي وضعتها حبا فيك ، وشغفا بك ، وحرصا على مستقبلك ، وهداية لك وإرشادا في سبيل حياتك ، أحب أن أشرح ، لك العوامل التي دفعتني إلى توجيهها إليك ....)[2] ، لكنه لم يذكر من هذه العوامل غير " الحب " الذي يقول عنه : (هذا الحب الكامل [وكان قد شرح مفهومه للحب الأبوي] هوالذي يملي عليّ ما أوجهه لك ولإخوتك من النصح والإرشاد)[3] .

وإذن فهذه الرسائل مرسلة إلى جمال وإخوته ، وهي ـ كما يسميها المرسل ـ نصوص من " النصح والإرشاد " ، وهي صادرة عن عواطف الأبوة ودوافعها الجياشة في نفسه .

وهذه الرسائل ـ في روحها ـ أقرب إلى المقالات الأدبية ؛ إذ تغلب عليها المعالجة الموضوعية ؛ لكنها تجسدت في جسد الرسالة . ولعل مما يؤكد هذا ويكشف ـ بوضوح ـ عن ملامح شخصية هذه الرسائل الموضوعية والفنية

---

[1] ـ أحمد حافظ بك . من والد إلى ولده . تقديم الكتاب .

[2] ـ المصدر نفسه ، ص ١

[3] ـ المصدر نفسه ، ص ٣

ـ في خطوطها العامة قول المرسل في صدر رسالته السادسة ؛ وهويخاطب ولده : (في رسائلي السابقة إليك ؛ وضعتُ لك أساسيات التربية والتعليم من الوجهة العامة ؛ أي من حيث حب العلم ، وحب المعلم ، وتدريب العقل وتمرينه ، وتقوية الجسم وتمتينه، والآن أريد أن أوجه إليك في هذه الرسالة وما يليها شيئا من النصائح والإرشادات فيما يختص بأجزاء العلوم والمعارف التي يجب أن تقبل عليها ، وتتوسع في دراستها ، وأعرض عليك آرائي في أنواع هاتيك المعارف ، وكيفية الاستفادة منها على الطريقة التي أراها نافعة لك في مستقبلك ، مذللة للعقبات التي تقف في طريقك عند جهادك في الحياة المقبلة عليك)[1] .

٢ ـ رسائل أحمد أمين إلى ولده

وهي عبارة عن تسع عشرة رسالة ، منها سبع عشرة رسالة موجهة منه إلى ولده ، وواحدة موجهة منه إلى ابنته ، وواحدة موجهة من ولده إليه . تمتد هذه المجموعة على مساحة مئة وسبعين صفحة من القطع المتوسط ، ويتكئ فيها المرسل إلى صيغة " أي بني " كثيرا ، و" يا بني " قليلا في رسائله إلى ولده ، و" أي ابنتي " ، و" أي بنيتي " في رسالته إلى ابنته .

وهي في جوهرها مقالات أدبية[2] ، عالج المؤلف من خلالها الكثير من قضايا الواقع ، وضمنها ملحوظاته وتجاربه وآرائه في حركة الحياة والناس، والفكر والدين والعادات والأخلاق والاجتماع والطبائع الإنسانية والتربية والتعليم والسياسة والحضارات .... مشفوعا بكم وافر من التوجيهات والنصائح والإرشادات، مع ربط ذلك ـ كله ـ بحياة ولده ، وبما يقترح أن

---

[1] ـ المصدر نفسه ص ٢٨

[2] ـ كما يصرح المؤلف بذلك في معرض تقديمه لها في كتابه .

تكون عليه حركته ومواقفه في تلك السياقات ؛ ولا سيما في المجتمع المغاير الذي كان يعيش فيه ولده عند كتابة هذه الرسائل . لكن هذه الرسائل لا تخلومن الانعطاف بين فينة وأخرى إلى استيعاب بعض الأحداث والمناسبات الشخصية المرتبطة ــ مباشرة ــ بحياتهما وعلاقاتها الأسرية الخاصة .

ولعل مما يميط اللثام عن الشخصية الحقيقية لهذه الرسائل ــ كما هي في عين مؤلفها نفسه وكما هي مستقرة في وعيه ــ قوله في معرض تقديمه لها عند نشرها :

(طلبت إليّ مجلة الهلال في آخر سنة ١٩٤٩ م أن أكتب لها سلسلة مقالات بعنوان " رسالة إلى ولدي " تنشر خلال عام ١٩٥٠ م ، فأتممتها اثنتي عشرة مقالة[١] ، في كل شهر مقالة ، وجهت فيها نصائحي ونتائج تجاربي إلى ولدي [٢]. وصادف أن كان لي ابن يتم تعليمه في إنجلترا ، فاستحضرته في ذهني عند كتابتها .... فلما تمت أشار عليّ بعض الإخوان أن أفردها في كتاب ، فاستصغرها الطابع ، وطلب أن أضم إليها مثلها أونصفها ، فاستقبلت هذا الطلب قبولا حسنا[٣] ، إذ كانت هناك معان عندي لم تكتب في الرسائل الاثنتي عشرة ، فكتبتها[٤] .... والمأمول أن ينتفع بها الجيل الحاضر كما انتفع بها ابني ، .... ولعلي ــ بذلك ــ أكون قد قمت بواجب عليّ نحوأبنائي من صلبي ، وأبنائي من شبان الجيل الحديث)[٥] .

---

[١] ــ هكذا ينص المؤلف هنا على مقاليتها .

[٢] ــ فكان سيكتبها على أي حال أوجد ولده أم لم يوجد ؛ أغاب أم حضر .

[٣] ــ وهكذا ؛ فقد ألفت الرسائل بطلب من المجلة أولا ، ثم تم تكبيرها بطلب أواقتراح من الطابع بعد ذلك .

[٤] ــ فالموضوع هنا هوالأساس ، وهوالمحور الذي تدور حوله حركة إبداع هذه الرسائل .

[٥] ــ أحمد أمين . إلى ولدي ص ٧ ــ ٩ .

إن هذا النص يفصح ــ بوضوح تام ــ عن شخصية هذه الرسائل في خطوطها الزمانية والمكانية والفنية والوظيفية ، وفي مرجعيتها الوجدانية والموضوعية .

٣ ـ رسائل عبد الصبور مرزوق إلى ولده

وهي عبارة عن أربع عشرة رسالة مطولة ، موجهة من المؤلف إلى ولده، وإلى الجيل ــ كله ــ من خلاله .

تترامى هذه المجموعة من الرسائل على مساحة خمس وتسعين ومئة صفحة من القطع كبير المتوسط ، ويتكئ المؤلف فيها إلى لفظة " ولدي " تتكرر كثيرا في صلب كل رسالة ، ويأخذ فيها ــ في أسلوب أدبي شائق ولكن في تركيز موضوعي ــ بيد ولده إلى السياحة الحرة في آفاق الواقع ، في خطوطه الدينية والأخلاقية الإنسانية الاجتماعية والسياسية والتربوية والتاريخية .....

ولعل ما يساعد على تحديد ملامح الشخصية العامة لهذه الرسائل في خطوطها الموضوعية والفنية والمرجعية قول مؤلفها ــ في معرض تمهيده لها عند نشرها ــ وهويخاطب ولده : (واليوم ــ يا ولدي ــ وقد غدوتَ شابا ، وبلغتَ مبلغ الفتيان ، أرى من واجبي ــ وأنا أجتاز الأعتاب إلى خريف العمر ــ أن أقول لك ما لم أقله لأحد، وأن أضع بين يديك عصارة حياتي ، ورصيد أيامي وتجاربي ، لعل فيها ما يقويك في رحلة الزمن ، ويحصّن وجودك في مصارعة الحياة .

ولدي ...

إن كل أملي فيك وما أنت في أسرتنا الصغيرة إلا نموذج لعشرات الملايين

من أمثالك في بيوت الآخرين ، يعلق عليهم وطننا الكبير كل آماله في المجد، وفي العظمة ، وإخضاع الحياة .. فإليك يا أملي في أسرتنا الصغيرة .. وإلى إخوتك جميعا في أنحاء وطننا أبعث بهذه الرسائل . أبوك)[1] .

ويقول المؤلف عن هذه الرسائل وعن ولده : (إنها نماذج منتزعة من نهر الحياة .... لإنسان في شرياني)[2] .

٤ ـ رسائل داود عبد الغفور سنقرط إلى ولده

وهي عبارة عن ست وثلاثين رسالة ، تمتد على مساحة أربع وخمسين ومئة صفحة من القطع الكبير . ألحق بها ثلاث عشرة رسالة رد من ولده ، يتواصل فيها الأب المرسل مع الولد المرسل إليه من خلال لفظة " بني " التي تتكرر في الرسالة الواحدة عدة مرات .

في هذه الرسائل يأخذ المرسل ولده ليجول به في فجاج الحياة والموت والإنسان والمجتمع والتاريخ والدين والأخلاق والقيم والمبادئ والمعرفة والنزعات والطبائع والمشاعر الإنسانية ، في جولات إبداعية تتراوح بين المقاربة الموضوعية المباشرة ، والقراءات الفلسفية المحلقة ، في أسلوب أدبي جذاب ، لكنه لا يبارح موضوع الرسالة الذي وظفت بكاملها لعلاجه ، وذلك كله في مسعى حاسم إلى بناء شخصية المرسل إليه بناء دينيا أخلاقيا إنسانيا سياسيا مسئولا . ومما يسهم في الكشف عن الملامح العامة لشخصية هذه الرسائل قول المؤلف في معرض تقديمه لها: (قارئي الكريم ... هذه الرسائل موجهة إلى ولدي ، وكل مولود في الوطن العربي أوفي العالم الإسلامي هوولدي ، لا فرق . إنني إذا أوجه الرسائل إلى جميع أولاد

---

[1] ـ عبد الصبور مرزوق . إليك يا ولدي ص ٥ .

[2] ـ المصدر نفسه . الغلاف .

العرب والمسلمين ، وقد وضعت لهم فيها ذوب نفسي وروحي ، ونتاج دراستي وتجاربي ، وكل عواطفي وأحاسيسي ، علني أشعل بها شمعة في ليل حياتهم الدامس . فلئن تشعل شمعة خير من أن تلعن الظلام .... والرسائل ــ كما ترى قارئي العزيز ــ أشبه ما تكون بباقة أزهار ، جمعت من كل روض زهرة ، ولبست ثوبا منسوجا تداخلت فيه سداه بلحمته ... الرسائل تنتظمها وحدة عاطفية ، لا وحدة فكرية .. فهذه طبيعتها ، وطبيعة كل الرسائل ، إلا أن تكون رسالة واحدة تتناول موضوعا معينا)[1] .

هذه هي شخصية هذه الرسائل كما يراها مؤلفها . والحق أن هذه المجموعة على مستوى أدبي فني راق . إنها تباشر علاج قضاياها بروح إبداعية مميزة لا يخضع للقيود المنهجية ، ولا تقيدها المباشرة الموضوعية عن التحليق الفني ، ولولا أنها ظلت ــ على الرغم من ذلك ــ أسيرة الواقع في كل وحدة من وحداتها ؛ للحقت بالنمط التالي مباشرة .

٥ ـ رسائل الدكتورة نعمات أحمد فؤاد إلى ابنتها وولدها

وهي عبارة عن مجموعة من المقالات ، قسمت بحسب تشاكلها الموضوعي إلى أربعة فصول وأخرجت في كتاب عدد صفحاته ثمان وخمسون ومئة صفحة من القطع الكبير.

إنها مقالات موضوعية ، تباشر قضاياها في الإنسان والحياة والمجتمع والعلاقات والدين والثقافة والتربية .... مباشرة واقعية ، في لغة أدبية سهلة واضحة ترتفع نبرتها حيناً وتنخفض أحياناً.

لست أرى فيها ما يرشحها لأن تسلك في باب " الرسائل الأبوية " ما عدا إشارات ذابلة لعل أبرزها عنوان الكتاب الذي جمعت فيه هذه المقالات ،

---

[1] ــ داود عبد الغفور سنقرط . رسالة إلى ولدي . ص ٧ ــ ٨ .

وهوما يدفع الدارس إلى إدراجه في هذا النمط مع تحفظه التام ، ولولا هذا العنوان الذي ليس من حقنا إلغاؤه أوتجاهله لكان مكان هذه المقالات في باب " المقالة الأبوية " إنه كما قالت عنه المؤلفة :

" حديثي اليوم بث ... النصيحة فيه دعاء لا دعوة ، ورأي لا إلزام ... لابنتي أن تعمل به أوتطرحه ... فحريتها في التفكير والتعبير والإرادة أغلى ثمنًا من الطاعة العمياء .

الكتاب يا ابنتي هديتي إليك فاجعليه هديتك إلى رفيقاتك فإنهن أيضًا مقصودات به ،.... "[1]

إنه – إذن ــ " حديث " ؛ لا رسالة ، و" كتاب " مفصل ؛ لا رسائل ، وليس له من الرسالة إلا عنوانه ؛ وتصديره إلى المرسل إليها في المقدمة .

لكن ، ينبغي ألا يفهم أن هذا حطّ من قيمة هذا الكتاب أوانتقاص منه ؛ كلا؛ ففيه تجربة إنسانية ثرية تحتاج إليها كل فتاة ، ويفيد منها القارئ أياً كان ، لكن المقصود أن له شخصية تتأبى على الانضواء في سياق الرسائل الأبوية بهدوء ، وبدون تعسف، إن مكانه الطبيعي في سياق " المقالة الأبوية".

٦ ـ رسائل منير الرزاز إلى أولاده

وهي عبارة عن اثنتين وعشرين مقالة ، تمتد على مساحة تقارب العشر والمئة صفحة ، وتشكل في مجموعها سيرة ذاتية خاصة بالمؤلف ، ولا علاقة لها بالرسائل إلا من ناحيتين :

الأولى : عنوان الكتاب .

الثانية : تصديرها بجملة " أبنائي الأحبة "[1] .

---

[1] ــ رسائل إلى ابنتي : ص٩ .

إن المكان اللائق بهذا الكتاب هو" السيرة الأبوية " ؛ أي النص الذي يتجه به الأديب إلى أبنائه ، ليعرض لهم سيرته الذاتية من خلاله .

٧ ـ رسائل الدكتور سليمان بن عبد الرحمن الحقيل إلى ولده

يقول المؤلف في سياق تقديمه لهذه الرسائل عند نشرها :

(ولدي

يتألف هذا الكتاب الذي بين يديك من " واحد وثلاثين " "[٢] رسالة وملحقا ، وقد حاولت في حدود الاستطاعة أن تكون هذه الرسائل مختصرة ومفيدة ، حيث اقتصرت على إيراد ما أراه من المعلومات لازما وضروريا ، لمن يريد أن يتحقق من أخطار وأضرار هذه السموم . وأثبت في معظم الرسائل مراجع لمن يريد التوسع في مواضيعها . وقد ركزت على تفنيد الأسباب التي يروج لها تجار المخدرات لدفع الشباب إلى تعاطي المخدرات والمسكرات ، بهدف إيضاح أن الأسباب التي تدفع الإنسان إلى تعاطي المخدرات ، بحجة أنها تزيل الهم والقلق والحزن ... وتحقق السعادة ؛ ما هي في حقيقة الأمر إلا أوهام ، ....

ولدي :

هذه الرسائل موجهة لك ولإخوانك وزملائك وأبناء وطنك ، وقد كتبتها بأسلوب ميسر ، لأنني أعتقد أن بساطة الأسلوب ووضوح العبارة وصدق اللهجة والتزام الموضوعية في عرض الحقائق يحقق الهدف من أخصر الطرق)[٣] .

---

[١] ـ منيف الرزاز . رسائل إلى أولادي . ص ١٩ .

[٢] ـ الصواب : إحدى وثلاثين ....

[٣] ـ د . سليمان بن عبد الرحمن الحقيل . رسائل من والد إلى ولده ص ٩ ـ ١٠ .

هكذا ؛ " واحد وثلاثين رسالة وملحقا " ، " مختصرة " ، " معلومات ضرورية"، " مذيلة بمراجع " ، " مخدرات ومسكرات " ، " تفنيد " ، " إيضاح الأسباب " ، " لك ولإخوانك وزملائك وأبناء وطنك " ، " أسلوب ميسر " ، "وضوح العبارة " ، " صدق اللهجة " ، " التزام الموضوعية في عرض الحقائق "؛ ...

هي رسالة أبوية موضوعية ــ إذن ــ تمتد على مساحة ثمان وثلاثين ومئة صفحة ، يتواصل فيها الأب المرسل مع ولده المرسل إليه ، من خلال لفظة " ولدي " التي تتكرر في كل رسالة بمعدل عال ، ويعرض في كل واحدة منها جانبا معينا من الموضوع الكلي ، ويختمها بالدعاء غالبا .

٨ ـ رسائل الدكتور حسن بن عبدالكريم الوراكلي إلى ابنيته

هي عباه عن مجموعة من الرسائل التي كان يبعث بها مؤلفها المقيم في مكة المكرمة إلى ابنته المغتربة في بلاد " الأندلس " لطلب العلم ، تواصلاً معها ، وتسليةً لها ، وتدعيماً لتماسك " ندى " روحياً ووجدانياً وفطرياً وسلوكياً في وسط مغاير تمام المغايرة ؛ لا تتماسك فيه الكثير من الأبنية .

بين يديّ – الآن – ست من هذه الرسائل :

الرسالة الثانية .... حوار الماء والإيمان

الرسالة الرابعة .... الميزاب ينتظمنا

الرسالة الخامسة .... كتابي محدثي وجليسي

الرسالة السادسة .... رحلة إلى يثرب

الرسالة السابعة .... الأرق من السلب إلى الإيجاب

الرسالة الثامنة .... نجدّ الأصل والفرع

من خلال هذه النماذج الستة ؛ يمكن القول : إنه تتنازع هذه الرسائل ثلاثة أصوات فنية مختلفة :

الأول : الصوت الشاعري المحلق ؛الذي يرمق موضوعه من فوق السحاب [1]

الثاني : الصوت الأدبي الموضوعي ، الذي يحضر فيه الأدب من خلال طائفة من التقنيات من قبيل : الحكي والتصوير والتداعي والإحالات الرمزية والبيانية والإيحائية ، بالإضافة إلى دفق العاطفة الأبوية الصادقة ، بينما يحضر فيه الموضوع الديني أوالتاريخي أوالثقافي أوالتربوي الجاد على امتداد النص ، وهذا الصوت هوالأكثر استئثاراً بنص المؤلف .

الثالث : الصوت العلمي البحت ، وذلك عندما يحضر " الأكاديمي " " الدكتور " "أستاذ الجامعة " على مسرح النص حضوراً كاملاً [2] .

وفي كل الأحوال ؛ فقد كان المؤلف يتواصل مع " ندى " من خلال صيغ ندائية ثلاث هي : " عزيزتي ندى " و" ابنتي العزيزة " و" أي ابنتي العزيزة " ليحلق بها في آفاق الدين والتاريخ والأدب والتربية ؛ من خلال لغة تتكئ – كثيرا – إلى المعجم التراثي الأصيل ، ومعالجة تستلهم النص الإسلامي والعربي وتوظفه بتمكن ، تحضنها " رسائل " تتراوح مساحة كل منها ما بين ست وعشر صفحات ببنط عريض ، وبمساحات بيضاء واسعة .

لكن هذه الرسائل ما زالت في حكم المخطوط ولم ينشر منها – حتى الآن – سوى رسالتين عبر المجلة العربية ، الأولى منهما في عدد جمادى الأولى عام ١٤٢٠ هجري ، رقم ٢٦٩ ، والثانية في عدد رمضان عام ١٤٢٠

---

[1] – انظر : صدري الرسالتين الثالثة والرابعة.

[2] – انظر : المقطع الأخير من الرسالة الثالثة .

هجري ، رقم ٢٧٢ ، ثم أوقف المؤلف نشرها ، وقد علمت أن هذه الرسائل ستنشر قريبا تحت عنوان فيوض.

تلك هي أبرز مجموعات الرسائل التي أمكن ربطها في سياق الرسالة الأبوية الموضوعية التي تتحرك في بؤرة الواقع أوقريبا منه شكلا ومضموناً

النمط الثاني : الرسالة الأبوية الحرّة

هي رسالة تتحقق فيها – كما في أختها الرسالة الأبوية الموضوعية – مواصفات الرسالة الأبوية الأدبية بحدها المنوه عنه ، ولكنها تختلف عنها من حيث تمردها على الضوابط المنهجية في المعالجة ، وتحررها من القيود الموضوعية في الطرح ، وأخذها نفسها إلى أبعد مدى عن المباشرة . ومن الرسائل التي يمكن رصدها في هذا السياق :

١- رسائل سعد البواردي إلى ابنته نازك

هي عبارة عن إحدى وستين رسالة قصيرة نسبياً ، تترامى على مساحة ست وسبعين ومئة صفحة من القطع المتوسط ، يتواصل فيها الأب المرسل مع طفلته من خلال معابر وجدانية من قبيل " صغيرتي " ، " بنيتي " ، غير أن الشفرة الوجدانية التي قل أن يخلومنها مقطع واحد من مقاطع كل رسالة هي جملة " يا نازك " – بما فيها من عذوبة ورشاقة لفظية ، وبما يُتَصَوَّر في معادلها المعنوي من براءة وجمال ولطف الطفولة ، وبما يمكن أن يكون فيها من شحنة رمزية محلقة – وما إن يمضي القارئ في قراءة صفحات قليلة من هذه الرسائل حتى يعتاد على هذه الشفرة الوجدانية ؛ بل ويحبها ويستعذب المرور عبرها ، ويشتاق إليها كلما طال طريقها إليه أوطريقه إليها

يستهل البواردي رسائله برسالة تحت عنوان " خوف عليها " بقوله :

(صغيرتي نازك : ! لقد احتار والدك .. احتار في أن يضع العنوان لهذه التفاهات ؛ أهي رسالة قصة ؟ أم هي قصة رسالة ؟ أهي تاريخ تفاهة ؟ أم إنها تفاهة تاريخ ؟ احتار في أن يسمي التفاهة بأكثر من أنها رسالة لقصة تافه يلفظ أنفاسه المسعورة في فضاء مسعور " وبقضاء مسعور " .... أيضاً)[1] ...

لكن البواردي لا يختم قصته إلا بعد إحدى وستين رسالة ، تطاولت على ست وسبعين ومئة من الصفحات حين يقول في ذيل الرسالة الحادية والستين: (نريد يا نازك أن نكون قوة للخير .. وأفضل مجهود يقدمه فرد لتدعيم أسس الخير هوأن نسلط الأضواء لنباعد بين الإنسان وبين الظلام ومهاويه .

نريد يا نازك أن نكتب الحقيقة بلا نسيان ... نكتبها بأعمالنا .. وندلل عليها بواقعنا .. وأن نؤكد بذلك لأحفادنا بالآثار الكريمة القوية التي ستنطق بتاريخنا .. ستتحدث عنا .. نريد أن تكون لنا ترجمان خير وعزة وخلود . وليحفظك الله أخيرا يا نازك .. ليحفظك .. ويرعى جيلك .. وتلك مني هي رسائلي إليك .. بعض رسائلي)[2] .

فكأنه – بحركته التصميمية الفلسفية هذه ، المقصودة قطعاً – جعل الكتاب كله جسدا واحدا ، وجعل من كل رسالة فيه عضواً من أعضاء ذلك الجسد ، وهي حركة فنية راقية أراد البواردي أن يوصل بها رسالة ما ، الأمر الذي يحتاج إلى دراسة غير نمطية لكشفه .

---

[1] – سعد البواردي ، رسائل إلى نازك . ص٩.

[2] ــ المصدر نفسه . ص ١٨٤ .

يحلق البواردي في هذه الرسائل بابنته " نازك " في آفاق النفس الإنسانية وطبائعها، والحياة والموت والكون والدين والعادات والمجتمع والتربية والتاريخ والسياسة ؛ ليرصدها من خلال رؤية فلسفية بالغة العمق ، تعيد تشكيل الواقع – في وعي المتلقي – في مفهوم وصورة مغايرين للمفهوم وللصورة السائدين .

٢ ـ رسائل الشيخ عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري إلى ولده

يقول التويجري في معرض تقديمه لرسائله إلى ولده ؛ يشير إلى الهاجس الإنساني الذي دفعه إلى نشرها ، وإلى رسالته التي يمارسها ـ في هذه الرسائل ـ مع القلم :

(يوم استجبت لنشر هذه الرسائل وأخذت قلمي لأخط هذه المقدمة ، وقفت حائراً : أأنا بهذا الهذيان أوهذا اللون من التعبير أجرح كبرياء القلم وآخذه ضيفاً على عائلة ذهنية ليس لديها قرى أوكساء جميل تجمل به هذه العائلة ضيافة القلم لها وتعطيه قدره العظيم ؟

فرسالة القلم التاريخية مع الإنسان والزمن المديد ليست رحلةً ينيخ لها المسافر جملاً يرحله ثم يثيره في اتجاه هدفه ، وعند بلوغه الهدف تنتهي الرحلة ويختفي الأثر ، أبداً .. فكل الماشيات في هذا الكون على أخفافها ، إن كن رحائل متناثرات في الفضاء ، أوكن رحائل في جمجمة الإنسان وذهنه في اليوم البعيد ، حكمة الله ، وقدر الإنسان مع هذه الرحلة ، في تصوري ، مطايا ثاوية ، إذا لم يثرها القلم من مباركها ويدخل بها في مجاهل الحياة منادياً عليها أن هذه الأثقال ؛ الساكن منها وغير الساكن ، المعبِّر منها والصامت ؛ قد يصيبه الخلل ويلحق به الاضطراب ، إذا لم ألحق به فأحمله

على أكتافي ثم أسلمه إلى الزمن وديعة لديه ، فرسالتي قد لازمت رسالة الإنسان وكلفتني حمل همومه وحمل كل ما يعانيه داخل نفسه)[1].

ويقول عن المتلقي الذي حرك قلمه في اتجاهه ، ووجه إليه ـ بالذات ـ وديعته تلك ، وعن دافعه الرئيس الكامن وراء ذلك : (وما في هذه الرسائل – التي أضع لها هذه المقدمة – إ لا مخاوفي ووعظي لأولادي حين كانوا في جامعات القوم هناك ، بعيدين عن الصحراء وقيمها ومعتقداتها الكريمة ، وما أولادي وحدهم الذين أخاف عليهم أبداً ، ... فمخاوفي أومخاوف الآباء الآخرين على أولادهم من سلبيات هذه الحضارة قدر أخذنا من عزلتنا إلى عالم البشر ، وهوأمر لا يستطيع اليوم خائف أن يختفي عنه وإن لاذ بالظلام !)[2].

صدرت الطبعة الأولى من هذا المؤلَّف سنة ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م ، في جزأين ؛ تحت العنوان العام " رسائل إلى ولدي " ، وتحت هذا العنوان العام وضع الشيخ لكل واحد من هذين الجزأين عنوانا خاصاً ؛ يحيل بوضوح إلى المحتوى الموضوعي السائد في ذلك الجزء ، وفيما يلي توصيف سريع لكل واحد منهما :

الجزء الأول

صدر تحت العنوانِ الجزئيِّ " حتى لا يصيبنا الدوار " ، وفكرة " الإصابة بالدوار " لم تكن مقحمة إقحاماً اعتباطيا على هذا الجزء ؛ بل كانت منتزعة من كبد هذا المؤلف ؛ فقد وردت هذه الفكرة ، ووردت ألفاظ " أصاب ، يصيب ، الدوار " على مدى الرسالة مترابطة في المواضع التالية :

---

[1] – عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري .رسائل إلى ولدي . حتى لا يصيبنا الدوار ص ١٥ ـ ١٦

[2] – المصدر نفسه ١٨– ١٩

١: ١٣٦، بإحالة عامة .١: ٣٥٤ ، بإحالة سياسية ، وهي التي انتزعها عنوانا لرسالته " الثلاثين " ، ثم عنوانا للجزء كله من عبارته : " لماذا يصيب الدوار من على قمة الجبل ؟ " الواردة في عرض رسالته تلك . ١: ٣٧٩ بإحالة فكرية . ١: ٤٠٥ بإحالة أخلاقية . ٢: ٢٩ بإحالة اجتماعية .

يتركب هذا الجزء من إهداء ، ومقدمة ، وست وثلاثين رسالة ، واثنين وعشرين رسماً داخلياً ، تنداح على مساحة اثنتي عشرة وأربعمئة صفحة من القطع المتوسط. أما عن الاتجاه العام للمحتوى الموضوعي في هذا الجزء فيطوفيه صوت الواقع التاريخي المشهود في دوائره الوطنية ، والعربية ، والإسلامية ، والعالمية .

الجزء الثاني

وصدر هذا الجزء تحت العنوان الجزئي " منازل الأحلام الجميلة " ، وهذه العبارة تمثل عنوان الرسالة الثانية عشرة من الرسائل التي اشتمل عليها هذا الجزء ؛ إذ وردت في إشارته إلى الربوع الغيبية التي انحدر منها الإنسان الأول : (لا أشك أن منازلنا الأولى هي منازل الأحلام الجميلة ...)[١].

يتركب هذا الجزء من سبع وثلاثين رسالة ، مع خاتمة ، وتسعة وثلاثين رسما داخلياً . ويمتد على مساحة اثنتي عشرة وأربعمئة صفحة . ويهيمن على هذا الجزء صوت النزوع إلى المثال ، والتطلع إلى الخلاص من ربقة الواقع في سائر سياقاته .

إن من يقرأ رسائل التوجري إلى ولده في عمقٍ وتجلٍ يوازي عمق الأداء الموضوعي والفني الذي نسجت عليه هذه الرسائل يدرك أن لهذا المؤلف القيم قيمة عالية على المستويات : الشخصي والتاريخي والفلسفي والفكري

[١] – رسائل إلى ولدي . منازل الأحلام الجميلة ص١٤٨.

والتربوي واللغوي والفني الجمالي . وإذا توقفنا – بتركيز – عند قيمته على المستوى الأدبي خاصة فإن هذه القيمة والتميز تتجلى في عناصر من أبرزها :

١ ـ الصياغة الإبداعية المميزة

تتنازع المعالجة الإبداعية عموماً ثلاث ضرائر ، مختلفة الأجناس والطبائع، إذا حضرت إحداها على مسرح النص بدأت الأخريان في الانسحاب الجزئي أوالكلي من ذلك المسرح . لماذا ؟

لأنه لا يوجد – في العادة – على مسرح النص إلا سلطة واحدة ، ولأن كل واحدة من هؤلاء الخصوم لا تحتمل سلطة الأخرى على النص ، وإن ما تحققه إحداها من مكاسب سيادية على النص فإن الأخرى أوالأخريين تفقدان من سيادتهما ما يقابله ، ولذلك كان أبرع الأدباء هوالذي يستطيع أن يوزع هذه السلطة الواحدة بالتوازن التام وبالعدل بين الضرائر ؛ فينخفض بذلك حضور كل واحدة منهن على مسرح النص وسيادتها فيه إلى الثلث .

هؤلاء الضرائر الثلاث هن : المعالجة الخيالية ، والمعالجة الفلسفية ، والمعالجة الموضوعية .

فماذا – إذن – عن حضور هذه الضرائر الثلاث على مسرح خطاب التويجري في رسائله إلى ولده ؟

أستطيع أن أقول هنا – وأنا مسئول عما أقول – إني وجت في خطاب هذا الشيخ من ذلك ما أذهلني ، وما لم أجده عند أديب آخر حتى الآن .

لقد تمكن الشيخ التويجري ، وعلى مستوى عال من الإتقان الفني :

إحضار الضرات الثلاث على مسرح النص .

أ- إعطاء كل واحدة منهن سيادتها الكاملة دونما انتقاص .

ج- دمج الضرات الثلاث - بهذه المواصفات - في نظام فني تساندي ، يبدوفيه الوجود الكامل لكل واحدة منهن ضرورة لوجود ونجاح الأخريين وسيادتهما .

د- الإبقاء على هذا التوازن على امتداد الرسالة ، إلا في مواضع محدودة جداً ارتفع فيها صوت إحداهن قليلاً على صوتي صاحبتيها .

لقد كانت النزعة الخيالية في المعالجة الإبداعية كاملة الحضور على مسرح نص الرسالة ، من خلال الصور والرموز والمعاريض واللغة المشبعة بالإيحاءات المفتوحة ، المنتزعة من أحشاء معجم وثقافة الصحراء ، التي ندر أن يخاطب الشيخ ولده إلا من خلالها .

وكانت النزعة الفلسفية كذلك حاضرة من خلال اختراق الأشياء والتغلغل فيها إلى المناطق المحجوبة التي لا منفذ للعقل إليها بالاستناد إلى أدوات عقلية ، ومن ثم إدارة عمليات الرصد والعرض والتحليل والتفسير هناك من خلال رؤية إسلامية عربية خالصة تستند إلى خلفية صلبة من مسلمات الكتاب والسنة ، ومن المبادئ العربية الإنسانية النبيلة ، ومن التصورات والرؤى الصافية التي أنضجتها حرارة الصحراء.

وكانت النزعة الموضوعية كذلك حاضرة في الرسائل من خلال حضور الموضوع الجاد على مسرح النص ، وطرحه للمعالجة الإبداعية الجادة - أيضاً - من خلال مجموعة من العناصر ؛ على رأسها الخيال والفلسفة الإبداعية كاملا الحضور .

إن هذه الصيغة الإبداعية المميزة التي استطاعت الدمج بين هذه المتناقضات في أعلى صورها سيادة وفعالية ؛ بل وتحويلها إلى عناصر متعاضدة ، يرقى وجود كل منهن بوجود الأخرى ، ويتعزز بتعززه – بما يجعل المتلقي في مواجهة احتمالات قرائية تزداد انفتاحاً وخصوبة كلما ازدادت قدرته القرائية – لهي من أبرز العناصر الفنية التي تميز رسائل الشيخ عن غيرها ، وتعطيها من القيمة الأدبية ومن الخصوصية ما ليس لسواها .

ولعل هذا الجانب في إبداع الشيخ من جوانب الإدهاش التي أذهلت كثيراً مما لا يعرفونه ، الأمر الذي دفع بعضهم إلى الوقوع في فخاخ الشك والحيرة .

٢ ـ التجاوز بالجنس الأدبي

مما يرفع من قيمة رسائل التوجري إلى ولده ويعطي من شأنها أن الشيخ قد استطاع من خلال رسائله هذه أن يتجاوز بفن " الرسالة الأدبية " ـــ عموماً ـ وبفن " الرسالة الأبوية " – على نحوخاص ـ نمطيتها الفنية المعهودة ، وأن يرقى بها من حيث الصياغة الإبداعية الراقية ، ومن حيث المساحات الموضوعية الشاسعة إلى مستوى غير مسبوق في فن الرسالة الأبوية . ولم تعد الرسالة الأبوية عن التويجري تلك الرسالة الساذجة التي لا وظيفة لها غير السلام والتحية ، وحمل معاني المودة ، والأمر والنهي ، والوعظ ، والنصح والإرشاد ، والوصايا ؛ وإن حملت من ذلك الكثير ؛ ولكن بأسلوب مختلف تماماً ، كما إنها لم تعد مجرد وعاء فني تقليدي ؛ تشحن فيه المضامين الساذجة والعادية .

لقد أصبحت " الرسالة الأدبية " عند التويجري جنساً أدبياً حياً مؤثراً ، يتمتع بشخصية موضوعية وفنية قوية لا تفتقر إلى شيء من الرزانة والجمال والحيوية ، ولا إلى سعة الأفق الذي لا يضيق بشيء .

وخلاصة القول : إن المدقق في هذا الطراز الأخير من الرسالة الأبوية يلمس – لأول وهلة – أنها نمط خاص من الأدب الأبوي ، لا يخضع لأية سلطة منهجية أوموضوعية أولغوية. إنها نمط مميز يعتمد على التدفق التلقائي ، والتداعي الفكري أوالوجداني أوالخيالي أوالفلسفي أوالموضوعي في البناء ، وعلى النزعة الفلسفية الخيالية المحلقة لا العقلية المقيدة في الطرح ، وعلى الإحالة العميقة والصورة المكثفة واللفظة الموحية في العرض ، على نحويبدومعه الموضوع – وإن علت أهميته – عاجزاً عن استدراج المبدع إلى ربقة الواقع الذي تُكبل فيه حركة الإبداع بقيوده الموضوعية والعقلية . إنك لا ترى الأب المرسل في هذا النمط من الرسائل الأبوية إلا محلقاً في سماء الإبداع ، لا يعيق حركته زمان ولا مكان ، ولا تتماسك في طريقة الحواجز . يحلق في آفاق الأشياء ؛ ممتطياً إليها رواحله الحسية ، فإذا بركت تركها إلى ظهور مطاياه الفكرية ، فإذا بركت هذه عدل عنها إلى صهوات جياده الخيالية ، فإذا ثوت هي الأخرى هجرها إلى أجنحة طيوره الوجدانية والروحية . فإذا غزا الواقع – فيما يغزووهوفاعل ذاك – أخذ الواقع ولم يأخذه الواقع ، وأسر الواقع ولم يأسره الواقع ، وقيد الواقع ــ كما يشاء ــ ولم يقيده الواقع .

إن هذا النمط من الرسائل الأبوية الأدبية هوفي رأي الدارس ألصق أضرب الرسالة الأبوية بروح الأدب وأمكنها فيه ، ذلك أن الأدب ينزع إلى التحرر من القيود المنهجية والمنطقية والموضوعية في التعبير عن قضاياه ، وبمقدار ما يتحقق له من حرية ؛ تتاح الفرصة لحضور العناصر التي تتحقق بها أدبية النص من خيال وعواطف وتقنيات فنية ، والعكس صحيح ، فكلما قيدت هذه الحرية انسحبت تلك العناصر من النص حتى تتوارى نهائياً ؛

ليستقر النص بعد ذلك في قبضة الموضوعية المجردة ، تحكمه سلطة العقل . لكن ما وقع في يد الدارس من الرسائل التي تمثل هذا النمط تمثيلاً حقيقياً قليل .

هذان هما نمطا الرسالة الأبوية الأدبية كما تجليا في عين الدارس من خلال النماذج المتاحة . ومن الملموس – تماماً – أن هذا الضرب – بشقيه : الموضوعي والحر – هو أرقى أضرب الرسالة فنا ، وأنضجها معالجة ، وأطولها نفساً ، وأوسعها موضوعاً ، وأعمقها رؤية ، وأخصبها تجربة ، وأكثرها نفعاً ، وأقدرها انتشارا ، وأبعدها نظراً ، وأشملها تصورا ، وأعلاها همة وطموحاً ، وأقلها أنانية ، وأخلصها نية ، وأصدقها إيثاراً ... ومن هنا كان إنشاء هذا الضرب من الرسائل مقصور على صفوة من المثقفين ، وكبار الأدباء ، من ذوي التجربة الطويلة ، والخبرة المعمقة ، والشفافية في الإحساس ، والقدرة الفائقة على التواصل العميق مع الأشياء . ولذلك ندر أن تجد شيئا من هذا الضرب – قل أوكثر – إلا ورأيته يصدر عن شخصية أدبية عالية الثقافة ، واسعة الاطلاع ، عميقة الرؤية ، شفافة الإحساس ، عريضة التجربة ، طويلة الخبرة . عركتها الحياة وعركت الحياة حتى نضجت في رأسها الثمار واستوت ، ومن هنا ندر – أن تجد هذا الضرب من الرسائل يصدر عن أديب شاب .

لذلك كله كانت الرسالة من هذا الضرب على هذا المستوى من المواصفات الفنية، وعلى سعة من المواصفات الموضوعية حتى يظن لك الظن أن المرسل لسعة المساحات والآفاق التي ترودها رسائله ، ولعمق معالجته متخصص في كل مجال ، وإنك لتدهش وتتساءل وأنت تقرؤه : من أين له كل هذا !؟

أخيرا ؛ فإن هذه الرسائل الأبوية أياً كانت شخصيتها الموضوعية : وعظاً أووصاة أوتوجيها ، شخصية أوعامة ، وأيا كانت نزعتها الفنية : موضوعية أوأدبية ؛ فإنها تبقى جميعها مشغولة بالتعبير عن مشاعر الآباء وعواطفهم النبيلة تجاه أولادهم ، مصبوغةً بالروح الأبوية المسولة التي تنزع دائما إلى وعظ الأولاد وإرشادهم وتوجيههم ونقل التجارب إليهم وتوعيتهم ، وبناء شخصياتهم على المثل الدينية والأخلاقية والإنسانية النبيلة . ذلك هوالهم الأساس الأول الذي يحمله هذا الجنس الأدبي الخاص ، ثم إنها بعد ذلك تأتي لتكشف عن تجارب الآباء وآرائهم وتصوراتهم وقناعاتهم في مختلف السياقات الدينية والأخلاقية والإنسانية والكونية . وهي بذلك كله تحمل قيماً موضوعيةً وفينة بالغة الثراء كثيفة التركيب .

كانت هذه حركة دراسية سريعة في صفحات الأدب الأبوي المشرقة ، بصورة عامة ، ثم في صفحات الرسالة الأبوية بشيء من التفصيل ، كما تمثلت تلك الصفحات في نظر الدارس . وما من شك أن هذا الجانب ــ أعني الأدب الأبوي في الأدب العربي ــ ما يزال بكراً ، وما يزال في أشد الحاجة إلى جهود الباحثين في تتبعه ورصده وإخراجه إلى ساحة الاستهلاك القرائي، ودراسة قضاياه وظواهره ، لا سيما وهومن أكثر أنواع الأدب خصوصية وصدقاً وإنسانية .